مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية
ISSN: 2477-9881 EISSN: 2676-2153
المجلد 08 / العـدد: 01 (2022)، ص 100- 118

جوانب من التنظيم العمراني لمدن الأندلس من خلال نوازل " الأحكام الكبرى" لابن سهل "حاضرة قرطبة نموذجا"

Aspects of the urban organization of the cities of Andalusia through the "Grand Judgments" of Ibn Sahel "Cordoba as a model"

ط.د جلولي رقية [*1] ، د. بلاّغ عبد الرحمان[2]
[1] جامعة طاهري محمد بشار (الجزائر)، مخبر الدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا - جامعة ابن خلدون تيارت، rekia.djellouli@univ-bechar.dz
[2] جامعة طاهري محمد بشار (الجزائر)، bellagh.abderahmane@univ-bechar.dz

تاريخ الاستلام: 2022/03/09 تاريخ النشر:2022/06/11

ملخص:

اتخذت الدراسات التاريخية الحديثة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية مجالا للاهتمام والبحث، مما يتطلب المزيد من النصوص والوثائق والجديد من المصادر، فكانت مدونات الفقه الإسلامي أهم هذه النصوص المطلوبة ومنها كتب النوازل. وقد ارتأيت في هذه الورقة الاعتماد على نموذج من تلك النوازل الفقهية لدراسة موضوع "التنظيم العمراني في الأندلس"، وقد اخترت كتاب "الأحكام الكبرى" لابن الأصبغ عيسى بن سهل (ت486هـ) الذي أمدّتني نوازله بمعلومات جد قيّمة تخص جوانبا من أحوال العمران وتنظيمه في واحدة من أهم حواضر الأندلس ألا وهي حاضرة قرطبة.

إن مدن الأندلس في القرن الرابع الهجري عامة وحاضرة قرطبة التي عرفت جانبا مهما من التنظيم العمراني عكس مدى اهتمام حكامها وفقهائها بالبنيان وكذا واقع التطور الحضاري الذي شهدته الأندلس في تلك الفترة.

الكلمات المفتاحية: النوازل الفقهية، قرطبة، التنظيم العمراني، ابن سهل، الأندلس.

Abstract

Recent historical studies have taken from social and economic life topics of interest and study that have required new sources, more texts and, documents.

Islamic jurisprudence books were the most important of these required texts, including El- Nawazil' books.

*المؤلف المرسل

In this paper, we considered that a model of such El-Nawazil of jurisprudence should be used to study the subject of "Urban Organization in Andalusia" through the book "The Great Judgments" of Ibn Al-Asbagh Issa ibn Sahel (d.486AH), which gave us very valuable information relating to both aspects of the conditions of life and its organization in one of the most important cities of Andalusia which is Cordoba.

The cities of Andalusia in the fourth century, in general, and in Cordoba in particular, have defined an important aspect of urban organization, which has reflected the interest of its rulers in building, as well as the reality of the cultural development of Andalusia in that period.

Key words: El- Nawazil of jurisprudence, Córdoba, urban organization, Ibn Sahel, Andalusia.

1. مقدمة

لقد أزاحت كتب النوازل الفقهية الستار عن مجموعة من القضايا التاريخية التي تهتم بالجوانب العمرانية الخاصة بالغرب الإسلامي رغم طابعها الفقهي، فقد أبرزت قدرة الشريعة الإسلامية على مواكبة التطور الفكري والمادي للعمران الإسلامي من خلال الاجتهاد الفقهي وبحثه في مصادر الشريعة الإسلامية عن الأسس لبناء الأحكام الفقهية وإصدار الفتاوى والتشريعات، القادرة على تنظيم وتأطير واقع ما فتئ يزداد نموا وتطورا وتعقيدا مما أسفر عن إنتاج غزير ومتنوع من النصوص والقوانين التي تحكم العمران والتساكن في مدن الغرب الإسلامي عامة والمدن الأندلسية خاصة.

لم يكن التشريع الفقهي في الأندلس ليهمش قطاع البناء والعمران الحضري فقد شهدت الأندلس خلال القرنين (4-5هـ/10-11م) إنتاجا كبيرا للقضايا والمسائل والنوازل، وإصدار عدد من الفتاوى والأحكام التي تهدف إلى تنظيم وتسيير العلاقات الاجتماعية ضمن مجال العمران والمدينة في المنطقة، ومن بين هذه النوازل كتاب "الأحكام الكبرى" لابن سهل (ت486هـ) الذي تناول في نوازله مسائلا تخص شؤون العمران في حاضرة قرطبة وبعض مدن الأندلس، من خلال عرضه لبعض الخصومات التي حدثت بين الساكنة عموما وبين أهل الجوار بشكل خاص، كما قدّمت نوازله جملة من الأحكام

الفقهية التي تعمل على فك هذه الخصومات، وبذلك تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها محاولة لإبراز دور الفقهاء والقضاة في الأندلس على وضع ضوابط للعمران خلال القرن 4هـ ومدى اهتمامهم بالبنيان ومسائل التوسع العمراني الذي شهدته الأندلس في هاته الفترة؛ تجدر الإشارة إلى أنّ ما تتضمنه نوازل ابن سهل من معطيات تتصل بالتنظيم العمراني، ينطبق على النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وليس على القرن الموالي الذي عاش خلاله ابن سهل، على أساس أنّها لا تعرض للتحولات التي طرأت على العمران في قرطبة بعد اندلاع أحداث الفتنة سنة 400 هـ.

من الدراسات السابقة التي مسّت بعض الجوانب من بحثنا هذا كتاب "الحركة العمرانية في قرطبة وضواحيها خلال القرن 4هـ/10م" لهلز عنتر ولي المزوري حيث تناول في طياته تاريخ العمارة في قرطبة وضواحيها بدءً بالعمارة الدينية ثم العسكرية وبعدها المدنية، إضافة إلى التطرق لمجمل النشاط العمراني في قرطبة وما جرى عليه من تحديث وتطور في عصر الخلافة الأموية حتى نهاية الدولة العامرية سنة (399هـ/1008م)، وجدنا أيضا مقالا للأستاذ يوسف نكادي بعنوان "بعض ملامح تنظيم المجال الحضري في قرطبة من خلال كتاب ديوان الأحكام الكبرى لابن سهل" حيث استعرض فيه بعض خاصيات المجال الحضري بقرطبة وما يتميز به من تدبر وعقلانية في التنظيم معتمدا على نوازل ابن سهل (ت486هـ).

سنحاول في هذه الورقة الإجابة على التساؤلات التالية: فيما تكمن الأهمية التاريخية لكتاب الأحكام الكبرى لابن سهل؟ وما هي أهم النوازل التي تضمنها في شؤون العمران؟ وهل استطاعت النوازل الفقهية ضبط مستجدات التطور العمراني في الأندلس؟.

2. ابن سهل وكتابه الأحكام الكبرى:

2. 1. ترجمة ابن سهل:

هو عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي الجياني الأصل، القرطبي المسكن، يكنى بأبي الأصبغ ولد سنة (413هـ)، روى عن أبي محمد مكي بن أبي طالب (ت437هـ)، وأبي عبد الله محمد بن عتاب الفقيه (ت462هـ) –وتفقّه معه، وانتفع بصحبته-، وأخذ عن أبي عمر بن القطان (ت460هـ)، وأبي مروان بن مالك (ت460هـ)، وأبي القاسم بن الطرابلسي (ت469هـ)، ومحمد بن شماخ الغافقي (ت459هـ)، وأبي زكريا القليعي (ت442هـ)، وغيرهم (ابن بشكوال، 1989، ص 235).

كان ابن سهل (ت486هـ) من كبار العلماء، حافظا للرأي ذاكرا للمسائل، عارفا بالنوازل بصيرا بالأحكام، وقد أثنى عليه ابن الصيرفي (ت900هـ) بقوله: "كان من أهل العلم، والفهم، والتفنن في العلم، مع الخير، والورع، وصحة الدين، وكثرة الجود، بارعَ الخط، فصيحَ الكتابة، حاضر الذهن، له قريض جَزْل، ولم يزل يتردد في القضاء". (ابن فرحون، 1996، ص 282)

تولى مترجمنا الشورى بقرطبة (أنظر التعليق رقم:01) ثم وُلي قضاء طنجة ومكناسة ثم رجع إلى الأندلس، فولي قضاء غرناطة، وتوفي بها مصروفا عن ذلك يوم الجمعة ودفن يوم السبت الخامس من شهر محرم سنة ست وثمانين وأربعمائة (ت486هـ) (ابن بشكوال، 1989، ص235/ ابن فرحون، 1996، ص282). خلف ابن سهل خمسة من المؤلفات منها ثلاثة كتب ورسالتين، حيث كتب في الأحكام كتاب شهير يُعد من أجلّ كتب المالكية، وهو: «الأحكام الكبرى»، وله «شرح الجامع الصحيح للبخاري» وأيضا «فهرسة شيوخ عيسى ابن سهل» وله أيضا «كتاب ابن سهل في الرد على ابن حزم الظاهري» و«رسالة ابن سهل إلى ابن حزم»، لم يصل إلينا منها سوى كتاب الأحكام الكبرى، وطرف من التنبيه على شذوذ ابن حزم، وفقرات يسيرة من رسالته إلى ابن حزم، أما فهرسته فقد

استفاد منها القاضي عياض كثيرا في كتابيه: الغنية وترتيب المدارك.(ابن سهل، 2007، ص 19-21)

2.2. التعريف بكتاب "الأحكام الكبرى":

يعد كتاب "الأحكام الكبرى" من الكتب التي نالت اهتمام أهل المغرب والأندلس قديما، لما حواه هذا الكتاب من اجتهادات وفتاوى في كثير من الوقائع والنوازل التي كانت محل نظر واجتهاد فكثر المستفيدون منه والمشتغلين به، فمنهم من اعتمد على الكتاب في أحكامه ونوازله، ومنهم من اختصره.(ابن سهل، 2007، ص 4-5)

أما حديثا فقد قُدّر لمصنّف ابن سهل أن يحظى بمزيد من اهتمام الباحثين الجامعيين العرب حيث قام الباحث المصري الدكتور محمد عبد الوهاب خلاف بنشر مجموعة من الوثائق التي يضمها كتاب الأحكام الكبرى في ستّة كتيّبات صدرت في الفترة الواقعة بين السنوات 1980م و1985م منها: "وثائق في أحكام القضاء الجنائي في الأندلس" و"وثائق في شؤون العمران في الأندلس: المساجد والدور" (خلاف، 1983، ص3)، وفي سنة 1995م قامت الباحثة السعودية نورة محمد عبد العزيز التويجري بتحقيق الكتاب كاملا ضمن جزأين، تم تحقيق قسمٍ أوّل منه في إطار رسالة جامعية لنيل الماجستير، وقسم ثانٍ منه لنيل شهادة الدكتوراه، ونشرت النص الكامل محققًا تحت عنوان: الإعلام بنوازل الأحكام وتحته عنوان فرعي" المعروف بالأحكام الكبرى".(ابن سهل، 1995، ص 8-9)

ثم ارتأى الباحث رشيد حميد النعيمي بدوره تحقيقه في إطار أطروحة جامعية لنيل الدكتوراه ونشره سنة 1997م تحت عنوان: "ديوان الأحكام الكبرى". وبعده قام الباحث محمد حسن إسماعيل بتحقيقه ونشرته مؤسسة دار الكتب العلمية سنة 2005م، تحت عنوان رئيس: "كتاب النوازل والأعلام"، وعنوان فرعي: "المسمى ديوان الأحكام الكبرى ."

ثم قام الباحث المصري يحيى مراد بتحقيقه سنة 2007م ونشره ضمن إصدارات دار الحديث بالقاهرة في مجلد واحد تحت عنوان: "ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقِطرٍ من سيَر الحُكّام."

مما سبق نرى أن الباحثين المحققين لنوازل ابن سهل قد وضعوا أكثر من عنوان لمجموع هذه النوازل، كذلك منهم من وصفه بالكتاب ومنهم من وصفه بالديوان، حيث وردت تسمية ديوان في أكثر من نسخة مخطوطة منها المخطوط الذي نسخه محمد بن يحيى بن علي الونشريسي (ت ه) حيث كتب في آخر ورقة منه :"... هذا آخر الديوان في الأحكام للفقيه القاضي أبي الأصبغ بن سهل بن عبد الله الأسدي، رضي الله عنه وأرضاه، لعشر خلت من شهر الله المحرم فاتح عام أربع وخمسين وثمانمائة.."(ابن سهل، 1995، ص10) والذي يتضح أنه أكمل نسخه يوم 10 محرم عام 854ه.

وعن تعريف كلمة الديوان فقد وردت في القاموس المحيط بأنه مجتمع الصحف والكتّاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية والجمع دواوين. (الفيروز آبادي، ج4، ص226) وعرفه الماوردي (ت450ه) فقال :"الديوان موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال" وأشار أيضا لسبب تسميته ديوانا فقال أن لها وجهان أحدهما أن كسرى اطلع ذات يوم على كتّاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم فقال ديوانه أي مجانين، فسمى موضعهم بهذا الاسم ثم حُذفت الهاء عند كثرة الاستعمال تخفيفا للاسم فقيل ديوان. والسبب الثاني أن كلمة الديوان بالفارسية اسم الشياطين فسمى الكتّاب باسمهم لحذقهم بالأمور ووقوفهم على الجلي والخفي وجمعهم لما شذ وتفرق، ثم سمي مكان جلوسهم باسمهم فقيل ديوان.(الماوردي، 1989: ص259)

وتتوزع مادة كتاب ابن سهل(ت486ه) على أبواب الفقه المعروفة؛ كباب القضاء والأحكام، وباب الوصايا، وباب الطلاق، وباب البيوع إلى باب مسائل الاحتساب، ويتميز عن غيره من المصنفات النوازلية التي تعود إلى القرن الخامس الهجري، بكون صاحبه يستعرض في كلّ باب ما يتصل به من أحكام، ويفتي في الوقت ذاته في النوازل والمسائل المتصلة بذلك الباب، وقد تضمّن نوازل ومسائل في قضايا ذات صلة بالدور والحوانيت والمساجد والأفران والحمامات والمقابر والمسالك والمحجّات وغيرها من المنشآت والمرافق التي كانت تقدّم

خدمات لسكان قرطبة وعلى المنوال نفسه كان الأمر في غيرها من حواضر الأندلس وقد وردت أهم تلك النوازل والمسائل ضمن مواد" باب في البيوع"، و"باب الصدقات والهبات"، و"باب مسائل الاحتساب". (نكادي، 2016، ص 118)

3. التنظيم العمراني لقرطبة في نصوص ابن سهل:

1.3 تنظيم المساجد:

تميزت قرطبة بكثرة مساجدها وبمسجدها الجامع في قلب المدينة، ومن المعروف أن المساجد كانت أساس التنظيم العمراني في المدن الإسلامية، لأن المسجد هو المركز الديني الذي يسيطر على حياة المدينة اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا، ومن حوله تلتف بقية مراكزها العمرانية، فكانت تقام حول ساحته الأسواق والحمامات والفنادق والدور والمقابر والقيساريات (أنظر التعليق رقم: 02) كما كانت تعقد فيه الاجتماعات. (سالم،1997، ص 32)

امتازت قرطبة بمسجدها الجامع العلامة البارزة في عمرانها إلى جانب المساجد الجامعة في الزهراء والزاهرة، وكذلك المساجد التي أنشأها عامة الناس في داخل قرطبة وضواحيها؛ قال الإدريسي (ت560ه) في وصف هذا المسجد العظيم "... وبها المسجد الجامع الذي ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقا وطولا وعرضا.." (الإدريسي، 2002، 575ص). وقد أتقن بناءه اثنا عشر ملكا من بني أمية، وزاد فيه الحكم المستنصر بالله (350-366ه) زيادة حسنة ... وآخر من بناه وأتقنه وزاد فيه كثيرا الحاجب المنصور بن أبي عامر(ت 392ه). (مجهول، 2013، ص105)

ويذكر لنا ابن سهل في كتابه مجموعة من أسماء المساجد بقرطبة منها: مسجد الشفا ومسجد عجب يقعان في الجانب الغربي لقرطبة، مسجد الأمير هشام ومسجد مقبرة البرج (ابن سهل، 2007، ص623-624)، مسجد أبي رباح (ابن سهل، 2007، ص797)، مسجد عباد (ابن سهل، 2007، ص425)، مسجد أبي الوليد (ابن سهل،

1995، ص821) ومسجد الأمير في الربض الشرقي بحاضرة قرطبة. (ابن سهل، 2007، ص 873)

بلغ عدد مساجد قرطبة وضواحيها حسب المصادر إلى 1600 مسجد حسب رواية ابن حيان (ت469ه) (المقري، 1968، ص67) في حين يشير ابن عذارى إلى وجود 3000 مسجدا (ابن عذارى،ج2، 1980، ص232)، أما رواية المقري(ت1041ه) فقد أورد وجود 3877 مسجدا (المقري، 1968، ص68)، كما يشير ابن حوقل (ت380ه) في روايته إلى وجود 490 مسجدا في قرطبة وضواحيها (ابن حوقل، 1979، ص108) ويؤيده البكري (ت487ه) ب 491 مسجدا. (الحميري، 1988، ص184/البكري، 1968، ص104)، وربما يعود هذا الاختلاف إلى تدخل أرقام مساجد قرطبة وضواحيها مع مساجد باقي مدن الأندلس.

كان إقبال أهل الأندلس على بناء المساجد لاهتماهم بالعلوم الشرعية وأعمال البرّ والإحسان وأداء الصلوات والشعائر الدينية حيث كانت المساجد ملاذا لها. ومع اتساع حجم السكان والحاجة إلى المزيد من المساجد اهتم أهل الأندلس من الخاصة والعامة بهذا المجال، فأسهم الخلفاء والأمراء وكبار موظفي الدولة ومن مختلف فئات المجتمع الأندلسي من العلماء وغيرهم في بناء عدد كبير من المساجد داخل قرطبة وضواحيها (ابن بشكوال، ج1، 1989، ص249)، فالأرقام التي تذكرها المصادر تؤكد حب الخير والعمل والرغبة في الثواب والأجر في هذا الاتجاه أيضا، فظهرت المساجد في كل رقعة من قرطبة وضواحيها، ففي كل ربض (أنظر التعليق رقم: 03) أو قرية كان هناك مسجد أو أكثر (المزوري، 2012، ص 113)، كما كان بكل مقبرة من المقابر مسجد أو أكثر، وتعددت المقابر بقرطبة ولعل أقدمها كانت مقبرة الربض العتيقة. (فكري، 1983، ص 185)

أشارت مجموعة نوازل يتضمنها مصنف ابن سهل أنّ الوحدات السكنية كانت قريبة من المساجد ومن الأسواق ومن المقابر، فضلًا عن وجود حدائق في بعض الأرباض بمحاذاة المنازل، ومن بين تلك النوازل، نازلة في موضوع تجار كانوا يؤدون الصلوات في حوانيتهم

وبالقرب منها ثلاثة مساجد (ابن سهل، 1995، ص 744)، ونازلة في موضوع عيب اكتشفه رجل في بستان ابتاعه ويقع البستان شرقي قرطبة في ربض حوانيت الريحاني في حومة مسجد أسلم (ابن سهل، 2007، ص347). ونازلة في موضوع رجل اشترى عَرصة (أنظر التعليق رقم: 04) ملاصقة لمقبرة أراد تحبيسها ليدفن فيها من يموت من ولده وأهله وكان لرجل آخر دار ملاصقة لهذه العرصة. (ابن سهل، 2007، ص593)

يشير ابن سهل في نوازله إلى مدى حرص المجتمع الأندلسي على نظافة المساجد ومثَل ذلك في نازلة أوردها مفادها منع الصبيان من الدخول إلى ميضأة مسجد عجب في قرطبة حرصا على نظافة المسجد ورعاية لحرمته (ابن سهل، 2007، ص623)، ونازلة أخرى في ذات السياق تناولت منع إنزال الزرع وغير ذلك في أفنية المساجد لما يحدث من أضرار وتلوث للمسجد (ابن سهل، 2007، ص623). كما يورد نازلتين بخصوص فتح أبواب للمساجد، الأولى "في ركوب القاضي مع الفقهاء إلى مسجد الأمير هشام للباب الذي أغلق من أبوابه" لفتحه تصونا لحرمة دور العبادة وقدسيتها، والثانية "عن فتح باب في مسجد مقبرة البرج" وأيد الشهود ضرر فتح هذا الباب بسبب حانوت. (ابن سهل، 2007، ص624)

واضح من النوازل السالفة الذكر أنها تهدف إلى حماية المساجد عن كل ما يمكن أن يدنس طهارتها أو يشوه مظهرها، فهي مخصصة للعبادة فلا يقوم مقامها عقد الصلاة في مكان عام كالسوق لا تؤمن طهارته، إضافة إلى أن تعدد أبواب المساجد أمر مستحب لما فيه من توسعة على الناس ودفع للتزاحم عند القدوم للمساجد والانصراف منها عند قضاء الصلاة.

2.3 تنظيم الدور والأحياء:

تشترك الوحدات السكنية في قرطبة، وفي غيرها من مدن الأندلس، في كون الدور فيها كانت موزّعة على أحياء، ذكر ابن سهل الواحد منها باسم "الحومة"؛ وتُعد الحومة الوحدة

الحضرية الأساسية التي ترتبط تنظيما بمسجد غالبا ما يكون اسمه مطابقا لها ودالا عليها.

ويبدو أنّ الحومات كانت مجمعات سكنية مخصصة للإقامة في المقام الأول، ولذلك كانت الدور التي تؤلّفها منغلقة على الخارج ومنفتحة على فضاء بداخلها. ولم تكن لمعظمها نوافذ في الواجهات المقابلة للأزقة باستثناء الباب الرئيس للمنزل (نكادي، 2016، ص125). ويستفاد من مصنف ابن سهل أنّ الحومات كانت تخترقها شبكة من الأزقة، بعضها رئيس وبعضها فرعي، وبعضها أزقة من دون منافذ (ابن سهل، 2007، ص803) . وكانت تصطف على يمين كلّ زقاق ويساره مجموعة من الدور وفي بعض الأزقة كان يفصل بين الدور فرنٌ أو حمام.

وأحصيت دور قرطبة التي بها وبأرباضها في أيام الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر (ت392ه) فكانت مائتي ألف دار، وثلاثة عشر ألف دار وسبعة وسبعين دارا، هذه في دور الرعية، وأما دور الأكابر والوزراء والرؤساء والقواد والكتاب والأجناد وخاصة الملك فستين ألف دار وثلاثمائة دار سوى مصاري الكراء والحمامات والخانات. (مجهول،2013، ص100)

وأورد ابن سهل (ت486ه) أسماء عدد من الحوم القرطبية، نخص منها بالذكر "حومة مسجد البلنسي برحبة أبان" (ابن سهل، 2007، ص234) كما أشار إلى "حومة مسجد أسلم" (ابن سهل، 2007، ص347) بربض حوانيت الريحاني، وذكر "حومة مسجد ضوء" الواقعة بالربض الشرقي من مدينة قرطبة، فضلا عن حومة مسجد عباد (ابن سهل، 1995، ص 425)، وحارة الدباج وحومة مسجد الشفا (ابن سهل، 2007، ص 623) وغيرها من الحوم والحارات.

3.3 تنظيم الحمامات:

تعتبر الحمامات من أهم المنشآت المدنية في المدينة الإسلامية لكثرتها وتعددها من جهة، ولارتباطها الوثيق بالطهارة المتأصلة بعمق في الإسلام من جهة أخرى، فاهتم أهل

الأندلس ببناء الحمامات والحفاظ على نظافتها فصهاريجها كانت تغطى بغطاء محكم يؤمن المياه من النجاسة ويبقيها نظيفة وطاهرة.(ابن عبدون، 1955، ص48)

تميزت قرطبة بوجه خاص بكثرة حماماتها حتى قيل أن عددها بلغ 300 حمام وقيل أن هذا الرقم كان خاصا بحمامات النساء فقط (ابن عذارى، ج2، 1980، ص232)، وذكر ابن حيان(ت469هـ) في رواية له أن عدد حمامات قرطبة بعد أن تناهت في الاتساع في عصر المنصور بن أبي عامر (ت392هـ) بلغ 900حمام، ويذكر المقري (ت1041هـ) في موضع آخر أن عددها بلغ 911حماما (سالم، 1997، ص24). وكان العدد الأعظم من حمامات قرطبة يقع بالقرب من المسجد الجامع.

لم يقتصر إنشاء الحمامات على الدولة فقط وإنما كان لعامة الناس دور في تشييدها فجاء ذكرها بأسماء الأشخاص القائمين عليها فعلى سبيل المثال أورد ابن جلجل (ت377هـ) إسم حمام منسوب إلى خالد بن يزيد النصراني، يقع قرب داره في بيعة شنت أجلج (ابن جلجل، 1985، ص96). وحمام باسم أولاد زكريا أخي نجدة الصقلبي ويقع في الربض الشرقي قرب النشارين، كما ورد اسم حمام ينسب إلى رجل اسمه هشام دون ذكر تفاصيل عنه وقد أطلق اسم أحد حمامات قرطبة على ربض يعرف باسم ربض حمام اللبدي.(المقري، 1968، ص 191-192).

تشير مجموعة من نوازل ابن سهل (ت486هـ) بأنّ عددًا من الحمامات والأفران كان يقع بمحاذاة الدور، مما كان يلحق ضررًا بسكانها، كما هو الشأن بالنسبة إلى "دار ابن أشرس وهي دار كبيرة تقع بحومة مسجد ضوء بمحاذاة حمام أبدون"(ابن سهل، 2007، ص 543). ودار المدعوّ عمر التي كان يقع بجوارها فرن أضرّ بصاحبها فأقرّ شهود حدوث الضرر الذي كان يقضي بوجوب هدم الفرن. (ابن سهل، 2007، ص 664)

4.3 تنظيم الفنادق:

كانت الفنادق أماكن تخصص لمبيت التجار، وخزن بضائعهم أو عرضها للبيع، وكانت تسمى بأسماء السلع التي تباع فيها أو بأسماء أصحابها، وكانت تكثر في مراكز المدن

وبصفة خاصة حول المسجد الجامع (خليفات، 2014، ص 159) وكذلك في أماكن النشاط الاقتصادي من المدن الأندلسية، والتي تتركز بشكل أساسي في المكان الذي يوجد به الجامع الكبير، وقد أورد صاحب كتاب "جغرافية وتاريخ الأندلس" أن مدينة قرطبة وحدها بلغ عدد فنادقها في أيام الحاجب المنصور بن أبي عامر(ت392هـ) 1600 فندق لسكنى التجار والمسافرين والغرباء وغيرهم. (البهنسي، د ت، ص188)

5.3 تنظيم الأسواق:

استحدثت الدولة الأموية (138-422هـ) أسواق موازية في كل ربض من أرباض المدينة للتمكن من مواكبة النمو الحضري والديمغرافي. فامتد النشاط التجاري إلى الحارات والأحياء التي شهدت بروز أسواق محلية صغيرة عرفت في المصادر الأندلسية باسم السويقات ويبدو أن صغار التجار كانوا يجتمعون بها كما في سويقة قرمس بقرطبة (ابن بشكوال، ج1989،1، ص312)، كما انتشرت الحوانيت بالأزقة والدروب لمعالجة تجارة التقسيط. حتى بلغ عددها الإجمالي حسب رواية المقري (ت1041هـ) وصاحب كتاب جغرافية الأندلس ثمانون ألف حانوت وأربعمائة وخمسة وخمسين حانوتا. (الطاهري، 1993، ص 83/ مجهول، 2013، ص101)

لقد قام الأندلسيون بتنظيم السوق تنظيما محكما حيث اختص كل جانب منها بنوع معين من السلع أو التجارة وكذلك الحرف، ويشتق اسم السوق من نوع السلعة المعروضة فيه أو الصنعة الممارسة فيه، وكان الشارع الرئيسي بسوق قرطبة يسمى المحجّة العظمى (خلاف، 1984، ص129) فكان بحوانيته العديدة يتألف من شبكة من الحارات الضيقة والدروب خُصص كل منها لحرفة تحمل اسم أصحابها، ويتخلل هذه الحارات هنا وهناك ساحات صغيرة تسمى رحبات. وذلك بالإضافة إلى الأسواق الكبرى التي كانت تمتد على ضفاف الوادي الكبير(سالم، ج2، 1997، ص131).

كانت السوق العظمى بقرطبة بالقرب من باب إشبيلية الذي سُمي بباب العطارين لأن سُويقة العطارين في تلك السوق العظمى كانت لا شك ملتصقة به. وكانت هناك سوق

عظمى أخرى تبدأ من الرصيف عند المسجد الجامع وتمتد إلى الجانب الشرقي من المدينة، وكان هذا الرصيف يؤدي بعد ذلك إلى الأرحاء المقامة على طرف النهر والتي كانت تعرف بأرحاء ناصح. وكان بالقرب منها ناعورة مشهورة ترفع مياه النهر.(فكري، 1983، ص 174-175)

أشارت بعض النوازل عن أسماء هذه الأسواق مثل سوق خاص بالخبز وسوق الرقاقين وسوق الصباغين وسوق الجزارين وغيرها من الأسواق. كما أشار ابن عذارى إلى عدة أسواق منها سوق الخشابين والنشارين والصاغة والبيازرة، وسوق السرادق الواقع بالقرب من قنطرة قرطبة.(ابن عذارى، ج3، 1980، ص80)

لقد روعي في إنشاء أسواق الأندلس متطلبات حفظ الصحة العامة وسهولة التموين وحسن التنظيم المعماري، فكانت أسواقها على الدوام فسيحة ومحلاتها نظيفة لدرجة أن ابن حوقل(ت380ه) يقول عنها: إنه لم يكن يوجد لها شبيه بجميع بلاد المغرب والجزيرة والشام ومصر في السعة والفساحة والنظافة. (ابن حوقل، 1979، ص 107).

أخذت الدولة على عاتقها الاهتمام بنظافة الأسواق كما منعت الناس من الدخول إلى القيساريات والأسواق على ظهور الدواب وذلك حفاظا على نظافتها ومنع حصول أي ازدحام في الأسواق بالمارة (المزوري، 2012، ص 197)، كما كان الناس يؤمرون بعدم رمي الأوساخ والقذارة على الطرقات وكان هناك مواضع لرميها تدعى المزابل وموقعها خارج المدن، فيمنع طرح القذارة داخل المدينة وعلى كل ربض اتخاذ موقع لها بين أظهرهم لذلك، وبعد ذلك يتم تنقيته من ما يجتمع فيها من الأوساخ. (المزوري، 2012، ص71)

كانت الأسواق في قرطبة تحت رقابة السلطة ويعتبر صاحب السوق (المحتسب) هو المنظم الحقيقي للحياة الاقتصادية. ولقد أشار ابن سهل في نوازله إلى بعض المشاكل التي كانت تحدث بين صاحب السوق والتجار وفي هذا وردت نازلة "أن محتسب نبه على سوء عمل الخرازين فتألبوا عليه بعد ذلك وأرادوا إخراجه من السوق ومنعه من التصرف فيه وأظهروا عقدا بأذاه لهم وإضراره بهم ...".(ابن سهل، 1995، ص 600)

4. أثر التنظيم العمراني على مجتمع قرطبة:

كان لزيادة حجم السكان بقرطبة دافعا مهما للاهتمام بعمران الدور والمساكن، حيث بلغ عدد سكان قرطبة في عصر الخليفة الناصر ما يقارب النصف مليون نسمة. فاهتم أهل الأندلس بإنشاء بعض المرافق التي كانت ذات صلة وثيقة بحياتهم اليومية كالشوارع والأسواق والفنادق والحمامات لأهميتها في كافة جوانب حياتهم.(المزوري، 2012، ص71)

وأمام هذا التوسع العمراني الهائل والنمو الديمغرافي الكبير لم تجد الخلافة الأموية خلال القرن الرابع بدًا من تقسيم قرطبة إلى عدد من الجهات التي تحتوي بدورها على أرباض ويذكر ابن بشكوال (ت578ه) في روايته أن عدد أرباض قرطبة "واحد وعشرون ربضا.." عند انتهائها في التوسيع والعمارة (المقري، 1968، ص465) كل ربض منها يزيد عرضه وطوله على الميل، وفي كل ربض ما يكفي أهلها من المساجد والأسواق والحمامات ولا يحتاجون إلى غيره. (مجهول، 2013، ص99)، مقسمة كالتالي: الجهة الشرقية وتحتوي على سبعة أرباض(أنظر التعليق رقم: 05) والجهة الغربية وتحتضن تسعة أرباض(أنظر التعليق رقم: 06) والجهة الجوفية وتشمل على ثلاثة أرباض(أنظر التعليق رقم: 07) ثم الربضين اللذين بالجهة القبلية (أنظر التعليق رقم: 08) وأخيرا "القصبة العتيقة واسطة البلد وكان ينقسم إلى ربضين"، وتقدم كتب الوثائق والسجلات معلومات هامة عن خضوع كبريات الحواضر الأندلسية لهذا الشكل من التنظيم الحضري الذي يميز داخل المدينة بين الجهات والنواحي، التي عادة ما تحتوي على مجموعة من الأرباض المحتضنة بدورها لعدد من الحوم والحارات والمواضع. (الطاهري، 1993، ص 98)

بالإضافة لأهمية هذا التقسيم في الضبط الأمني للسكان وفي تأطيرهم إداريا وقضائيا، يرى الباحث أحمد الطاهري أنه قد برهن عن فعالية كبرى على مستوى الضبط العقاري، فالملاحظ أن الموثقين قد دأبوا على الضبط الدقيق لمختلف المعاملات العقارية. فبخصوص عقود الملكية، المفروض تحديد موقع العقار إن كان دارا "بحاضرة

قرطبة بشرقي مدينتها أو بغربها بربض كذا وبحومة مسجد كذا أو بحاضرة كذا، ومنتهى حدها كذا بحقوقها ومنافعها ومرافقها الداخلة فيها والخارجة عنها" بحيث لا يترك أي مجال للخلط مستقبلا ولا للخلاف. (الطاهري، 1993، ص100)

ولم تكن عقود البيع أقل دقة، فإذا كان المبيع حانوتا فالمطلوب تحديد موقعه بالنسبة للمدينة والربض والحومة وحدوده من الجهات الأربع بالنسبة للأملاك المجاورة له يضاف إلى ذلك تحديد موقعه "بسوق كذا" من أسواق المدينة، فضلا عن محجة السوق التي إليها يشرع بابه وإن كان على بابين ذكرا كذلك. (الطاهري، 1993، ص 100-101)

لقد كان المجال المسكون منتظمًا انتظامًا يتوافق مع نمط حياة الأسر الذي كان يقوم على مجموعة قيم تتمثّل بحرمة الذات وحرمة المكان، فضلا عن الحميمية والوقار وارتفاق الجار بالجار. وهي قيم يمكن عدّها بمنزلة مبادئ كانت تحكم العمران والتساكن في المدن الأندلسية، ومدن دار الإسلام عمومًا. (نكادي، 2016، ص 126)

تضمّن مصنف ابن سهل صورَ هذه القيم وتجلياتها في مجموعة نوازل ومسائل بتَّ فيها؛ من قبيل نازلة في موضوع رجل ذكر أنّ في دار جارته غرفة لها باب تخرج منه إلى سقيفة تجلس فيها، وأنّ الصاعد إلى السقيفة يطّلع على ما يجري في غرف داره ويجرح حرمة هذه الغرف، وأنّ في ذلك ضررًا عليه (ابن سهل، 2007، ص 813). ونازلة ثانية في موضوع رجل يملك دارًا في حومة مسجد أبي رباح اشتكى من جارته لإحداثها درجًا تصعد عليه إلى غرفة لها (ابن سهل، 2007، ص797)، فرأى أنّ إحداث الدرج يضر بالحائط الفاصل بين مسكنيهما. ونازلة ثالثة في موضوع خلاف بين رجلين، قام أحدهما ببناء جدار فوق حائط جاره (ابن سهل، 2007، ص799)، فرفع هذا الأخير تظلّمه بدعوى عدم جواز هذا الفعل الذي ينمّ عن نوعٍ من التعدي على حقوق الغير.

قريبًا من هذه النوازل، أثار ابن سهل (ت486ه) مسائل تتصل بالرفوف الواقعة على الحيطان بين الجيران (ابن سهل، 2007، ص801)، كاتَب في شأنها شيوخ قرطبة قصد الاستشارة، ويتضح من فحوى هذه النوازل، أنّ مبدأَي التساكن وارتفاق الجار بالجار كانا

يقضيان بأن يمتنع مالك دار عن إقامة رفٍ على حائطه يضع عليه شيئًا من القصب أو ما شابه ذلك. كما يقضي المبدآن بأن يمتنع الجار عن الزيادة في علوّ جدار فاصل بينه وبين جاره، لئلا يمنع عنه الهواء وأشعة الشمس والضوء لأنّها تأتي من السماء التي ليست ملكًا لأحد (خلاف، 1983، ص 43).

5. خاتمة:

نستنتج مما سبق أن حاضرة قرطبة كانت تمثّل في عصر الخلافة الأموية (138هـ-422هـ) بالأندلس أكبر مركز حضري في شبه جزيرة أيبيريا، وكانت كثيفة السكان حتى مطلع القرن الخامس الهجري؛ ضمّت مجموعات كبرى من الدُور والمنشآت العمرانية والمرافق المدنية والدينية والاقتصادية التي ساهم في إنشائها الحكام وأفراد المجتمع على حد سواء، فشكّلت العمارة في مدينة قرطبة في مجملها كماً ونوعاً أعظم ما شهدته الأندلس خلال الوجود العربي الإسلامي.

اتصف المجال المسكون بقرطبة بالانتظام والتوافق مع نمط حياة الأسر الذي كان يقوم على مجموعة قيم منها حرمة الذات وحرمة المكان، والوقار، وارتفاق الجار بالجار التي يمكن اعتبارها مبادئ كانت تحكم العمران والتساكن في المدن الأندلسية.

دارت حول المنشآت والمرافق العمرانية بقرطبة خلال القرن (4هـ) مجموعة مسائل وفتاوى نظَرَ فيها ثلّة من الفقهاء من بينهم عيسى ابن سهل (ت486هـ)؛ حيث عرض لنا في نوازل كتابه "الأحكام الكبرى" مسائلا تتعلق بقضايا ذات صلة بالدُور والحوانيت والمساجد والأفران والحمامات والأسواق والمحجّات وغيرها من المنشآت، والتي بيّن من خلالها سعة الفقه الإسلامي لقضايا الحياة وهي التفاعل بين الفقهاء والمجتمع للمصلحة العامة، وكذلك عرض العلاقة بين العمران والمجتمع ونشاط الإنسان المسلم وعلاقاته بجيرانه.

قائمة التعليقات:

تعليق رقم 01: قُرْطُبة: بضم أوله وسكون ثانيه وضم الطاء المهملة أيضا والباء الموحدة كلمة فيما أحسب أعجمية رومية ولها في العربية مجال يجوز أن يكون من القرطبة وهو

العدو الشديد، وهي مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها وكانت سريرا لملكها وقصبتها وبها كانت ملوك بني أمية ومعدن الفضلاء ومنبع النبلاء من ذلك الصقع وبينها وبين البحر خمسة أيام (ياقوت الحموي، د.ت، ص324). ذكر البكري أن تفسير قرطبة بلسان القوط قُرظُبة بالظاء المعجمة، ومعناه بلسانهم القلوب المختلفة وقيل :"معنى قرطبة آخر فاسكنها". (البكري، 1968، ص388)

تعليق رقم 02: القَيسارية وهي تعريب للكلمة اليونانية (kaisarerie) وتعني السوق القيصري التابع للدولة، وهو عبارة عن بناء كبير على شكل مستطيل، بداخله طريق وتتوزع فيه الحوانيت على كلا الصفين. (المزوري، 2013، ص195)/ القيسارية وهي مبنى واسع مربع أو مستطيل الشكل مسقف بالأقبية ضمن المنطقة التسويقية المركزية، وظيفتها تجارية بحتة، حيث تباع فيها البضائع الثمينة عادة، فهي تضم عددا من المحلات التجارية الصغيرة (الدكاكين) المتخصصة ببيع سلعة واحدة أو عدد قليل من السلع، ولفضائها القابلية على العزل عن فضاءات السوق الأخرى ببوابات تقفل ليلا. (الطائي، 2010، ص 149).

تعليق رقم 03: الربض وهو مصطلح يشير إلى المقاطعات أو مراكز المدينة الأخرى الواقعة خارج المنطقة المركزية أو خارج المدينة، وأنه يعني أيضا الجوار المباشر للمدينة، كما أن الربض (الضاحية) عادة يأخذ اسم مدينته. (الطائي، 2010، ص 175-176).

تعليق رقم 04: العَرْصَة: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناءٌ ج: عِراص وعَرَصات وأَعراصٌ. (الفيروز آبادي، دت، ص623).

تعليق رقم 05: أرباض الجهة الشرقية: ربض شبلار، ربض فرن بريل وربض البرج، ربض منية عبد الله، ربض منية المغيرة وربض الزاهرة، وربض المدينة العتيقة، **ينظر:** (المقري، 1968، ص 466).

تعليق رقم 06: أرباض الجهة الغربية: ربض حوانيت الريحاني وربض الرقاقين وربض مسجد الكهف وربض بلاط مغيث، وربض مسجد الشفا، ربض حمام الألبيري وربض

مسجد مسرور، ربض مسجد الروضة وربض السجن القديم، **ينظر**: (المقري، 1968، ص 465-466).

تعليق رقم 07: أرباض الجهة الجوفية: ربض باب اليهود وربض مسجد أم سلمة وربض الرصافة **ينظر**: (المقري، 1968، ص 466).

تعليق رقم 08: ربضي الجهة القبلية: ربض شقندة، ربض منية عجب، **ينظر**: (المقري، 1968، ص 465).

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد الطاهري (1993)، دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس (عصري الخلافة والطوائف)، ط1، مطبعة الجديدة، الدار البيضاء.
2. أحمد فكري (1983)، قرطبة في العصر الاسلامي- تاريخ وحضارة، مؤسسة شباب الجامعة.
3. إياد عاشور الطائي (2010)، تخطيط المدن في المغرب العربي – دراسة تراثية حتى مطلع القرن الرابع الهجري-،ط1، دار دجلة، عمان.
4. ابن بشكوال. (1989). *الصلة* (ط1). ج1 وج2، تح: إبراهيم الأبياري، المكتبة الأندلسية.
5. البكري، أبو عبد اللّه بن عبد العزيز (1968)، جغرافية الأندلس وأوربا (من كتاب المسالك والممالك)، تح: عبد الرحمان علي الحجي، بيروت، دار الإرشاد للطباعة والنشر.
6. ابن جلجل، أبو داوود سليمان بن حسان. (1985). *طبقات الأطباء والحكماء* (ط2). تح: فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة.
7. الحميري، أبو عبد اللّه محمد بن عبد المنعم (1988)، صفة جزيرة الأندلس، ط2، بيروت، دار الجيل.
8. ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي.(1979). *صورة الأرض*، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.
9. خليفات، محمد عطا اللّه (2014)، "أسواق الأندلس في عصر الدولة الأموية (138-422ه/755-1030م)". *مجلة المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية*، (مج1، ع1).
10. ابن سهل، عيسى ابن الأصبغ (2007)، ديوان الأحكام الكبرى-الإعلام بنوازل الحكام وقطر من سير الحكام، تح: يحي مراد، القاهرة: دار الحديث.
11. ابن سهل، عيسى ابن الأصبغ .(1995). الإعلام بنوازل الأحكام (ط1). تح: نورة محمد عبد العزيز التويجري، (د.ب).
12. السيد عبد العزيز سالم (1997)، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة تاريخية، عمرانية أثرية في العصر الاسلامي)، ج1و ج2، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية.

13. الشريف الإدريسي، أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن عبد اللّه (2002)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،المجلد2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

14. صلاح أحمد البهنسي (د.ت)، عمارة المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، مر: أحمد عبد الرازق أحمد، كلية الآداب جامعة عين شمس، مصر.

15. ابن عبدون، محمد بن أحمد التجيبي (1955)، رسالة في آداب الحسبة والمحتسب ضمن ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة، تح: ليفي بروفنسال، القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي.

16. ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد (1980)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج.س كولان وليفي بروفنسال، ط2، بيروت، دار الثقافة.

17. ابن فرحون (1996)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: مأمون بن محيي الدين الجنان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

18. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (د.ت)، القاموس المحيط، ط6، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة.

19. الماوردي أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت450هـ)(1989). كتاب الأحكام السلطانية والولايات الدينية. تح: أحمد مبارك البغدادي. ط1. مكتبة دار ابن قتيبة. الكويت

20. مجهول(2013)، جغرافية وتاريخ الأندلس لمؤلف مجهول كان حيا في ق9ه، تح: عبد القادر بوباية، طبعة خاصة، مؤسسة البلاغ، الجزائر.

21. محمد عبد الوهاب خلاف (1983)، وثائق في شؤون العمران في الأندلس: المساجد والدور - مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل الأندلسي، ط1، المركز العربي الدولي للإعلام، القاهرة.

22. محمد عبد الوهاب خلاف (1984)، قرطبة الاسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي- الخامس هجري الحياة الاقتصادية والاجتماعية، الدار التونسية للنشر.

23. المزوري، هلز عنترولي (2012). *الحركة العمرانية في قرطبة وضواحيها خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي* (ط1). عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع.

24. المقري (1968)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

25. نكادي، يوسف (2016، يناير)، "بعض ملامح تنظيم المجال الحضري في قرطبة من خلال كتاب ديوان الأحكام الكبرى لابن سهل". *مجلة أسطور*، (العدد3)، 13 صفحة، (116-129).

26. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد اللّه (د.ت)، *معجم البلدان*، المجلد4، بيروت: دار صادر.